المفارقة القرآنية

دراسة في بنية الدلالة

الدكتور / محمد العبد

استاذ العلوم اللغوية ورئيس قسم اللغة العربية

كلية الالسن - جامعة عين شمس

MAUB

الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المفارقة القرآنية

دراسة فى بنية الدلالة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المفارقة القرآنية

دراسة فى بنية الدلالة

الأستاذ الدكتور

محمد العبد

أستاذ العلوم اللغوية ورئيس قسم اللغة العربية

كلية الألسن – جامعة عين شمس

٢٠١٣ م

MAUB

الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعى

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

الكتاب : **المفارقة القرآنية – دراسة فى بنية الدلالة**

المؤلف : الأستاذ الدكتور محمد العبد

تاريخ الإصدار : ٢٠١٣ م

حقوق الطبع : محفوظة للناشر

الناشر : الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعى

العنوان : ٨٢ شارع وادى النيل المهندسين ، القاهرة ، مصر

تلفاكس : ٥٦١ ٣٣٠٣٤ (٠٠٢٠٢) ٠١٢٢/١٧٣٤٥٩٣

البريد الإليكترونى:

m.academyfub@yahoo.com

m.academyfub@gmail.com

رقم الإيداع : **٤٩٩٧ / ٢٠١٣**

الترقيم الدولى : 978 – 977 – 6149 – 64 - 9

تحذير :

حقوق النشر : لا يجوز نشر أى جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أى نحو أو بأية طريقة سواء أكانت اليكترونية أو ميكانيكية أو خلاف ذلك إلا بموافقة الناشر على هذا كتابةً ومقدماً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مقدمة الطبعة الثالثة

أقول في هذه المقدمة ما قلته في مقدمة الطبعة الثانية من ذلك الكتاب؛ فمن النصوص – أدبية أو غير أدبية – ما تتبنى المفارقة استراتيجية دلالية، ومنها ما تتبناها تقنية دلالية، ولكنها في الحالتين تعرف ما تؤديه المفارقة – في سياقات الاتصال المناسبة – من وظائف لا تؤديها في غيرها من الاستراتيجيات والتقنيات.

لقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في عام ١٩٩٤م، ومنذ ذلك التاريخ لم أر من الباحثين الجدد من انصرف همه إلى استعراض وظائف المفارقة في فنون القول المختلفة إلا ما ندر. أضف إلى ذلك أن بحثًا آخر في المفارقة القرآنية في ضوء لسانيات النص وتحليل الخطاب مازال – منذ صدور كتابي هذا – رهن العدم.

بناء على ذلك، كانت الطبعة الثالثة التي بين أيدي القراء الأعزاء مطلبًا ملحًا. وأنا أرجو بها مرة أخرى أن تستنهض عزم الباحثين إلى محاولة استكشاف وجوه الإعجاز اللغوي للقرآن في عصر تتجدد فيه مناهج اللسانيات وتتطور يومًا بعد يوم.

والحق أنني مدين بالفضل في إصدار هذه الطبعة الثالثة لأخي الكريم الأستاذ/ جمعة هندي، صاحب مكتبة الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي الذي أراه بعلمه ووعيه وخلقه ونمط إصداراته مثالاً طيبًا للناشر العصري، جزاه الله عني وعن ذلك الكتاب خير الجزاء.

المؤلف

القاهرة الجديدة

في ٢٠١٢/١٢/٢٤م

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولي

يتنوع الخطاب تنوعًا لا حدود له. وتتخذ المنطوقات بدورها أشكالاً بنائية وموضوعية وفيرة: فقد تكون غير مباشرة، وقد تكون واضحة، أو شاذة، أو تهكمية أو مازحة، أو خشنة، أو غير مقبولة،أو ساذجة لا تخلو من حمق...الخ. والمفارقة واحدة من الإمكانات الأسلوبية، التي تقدمها منطوقات مختلفة في النص القرآني. وإذا كانت دراسة المفارقة على المستوى اللغوي العام من الأهمية بمكان، فإن دراستها في لغة القرآن الكريم بخاصة، تعد عظيمة الخطر، شريفة القدر.

تعرض المفارقة طريقة من طرائق استخدام اللغة في السياق النصي، والسياق الخارج عن النص. وتنعقد بنية الدلالة في خطاب المفارقة، على علاقة التضاد بين الدلالة الحرفية الأولية للمنطوق. لفظًا، أو مجموعة لفظية، أو عبارة، أو جملة، أو ما فوق الجملة، وبين دلالته المحوَّلة التي يرشحها السياق بنوعيه السابقين، وهي هذه الدلالة، التي يمكن أن نطلق عليها هنا اسم "الدلالة المفارَقية".

وللمفارقة وظائف خطابية، تدعو المخاطب أو القارئ، أن يربط نفسه بها أشد ما يكون الربط؛ لإدراكها وتفسيرها تفسيرًا مقبولاً أو سليمًا. ولذلك كان بحثها – من ناحية أخرى – مما يقود إلى فهم أفضل لتركيب النص وطبيعته الخاصة؛ لأنها تفتح الباب على مصراعيه لملاحظة العلاقات النصية المتنوعة التي تكون أساسًا للنص.

وتحتاج المفارقة – في صناعتها – إلى مهارة لغوية خاصة، كما تحتاج إلى إحكام بالغ الدقة، للعلاقة بين الشكل والوظيفة، أو بعبارة أخرى: بين المقال والمقام.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتعد المفارقة – من زاوية المعجمية التاريخية – عاملاً من عوامل التطور الدلالي للغة، من حيث إن اللفظ يكتسب معها معنى جديدًا، هو من معناه القديم بمنزلة النقيض، وذلك حين يكون الخطاب للتهكم ونحوه.

وبحسب ما يعلمه صاحب هذا البحث، فإن العربية لم تعرف حتى الآن، إلا محاولتين اثنتين لدراسة المفارقة. وهما محاولتان اشتغلتا – في التطبيق – على نماذج من القص العربي المعاصر، ونهجتا نهجًا فنيًّا بلاغيًّا نواته المغزى[1]. من أجل ذلك، فإننا نحسب أن هذه الدراسة التي بين أيدينا، هي أول دراسة موسعة في العربية، تدخل إلى المفارقة: تنظيرًا وتطبيقًا من مدخل لغوي متخصص. وهي – من ناحية أخرى – أول دراسة تحليلية متكاملة لخطاب المفارقة في النص القرآني سعت – في وعي وحرص – إلى الإفادة من علوم لغوية مختلفة، استلزمتها مسألة التحليل ذاتها، من حيث الإجراءات التطبيقية والمنطلقات المنهجية جميعًا. وأهم هذه العلوم: نظرية تحليل الخطاب، وعلم اللغة النصّي، وعلم اللغة الأسلوبي، فضلاً عن علم اللغة العام، بمستوياته التحليلية المختلفة.

وقد بدا للبحث، أن نظرية تحليل الخطاب، هي الدعامة النظرية الأهم والأنسب، التي يستند إليها التطبيق والتحليل والتفسير في لغة المفارقة؛ فإذا كانت المفارقة ظاهرة سياقية في أوليتها، فإن تحليل الخطاب في جوهره، طريقة من طرق النظر إلى اللغة من حيث هي نص في سياق as text in context[2].

وإذا كان العارفون بنظرية تحليل الخطاب، يدركون ما لهذا الاصطلاح، في السنوات الأخيرة، من توزعات شتى: عند البلاغيين، واللغويين الوظيفيين، واللغويين الشكليين، واللغويين الاجتماعيين، واللغويين النفسيين وعلماء النفس المعرفيين، واللغويين التطبيقيين، بل عند علماء التعليم

---

(1) الدراستان من مراجع البحث، وهما: "المفارقة" للدكتورة نبيلة إبراهيم، و"المفارقة في القص العربي المعاصر" للدكتورة سيزا قاسم. وقد نشرتا في مجلة فصول.

(2) فصلت القول في هذا الأمر في بحث لي بعنوان: "نظرية تحليل الخطاب".

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

والباحثين في الإنشاء، وعند أصحاب علم اللغة النصي، وغيرهم، فإن هذا البحث، قد مال ميلاً إلى نهج اللغويين الوظيفيين وأصحاب علم اللغة النصي، في تعاملهم مع كيفيات تحليل الخطاب. ويتضمن تحليل الخطاب عند اللغويين الوظيفيين، دراسة العلاقات بين الشكل والوظيفة، في شرائح لغوية أكبر عادة من الجملة أو المنطوق، وإن كان من النادر، أن تكون أكبر من الفقرة في اللغة المكتوبة والحوار القصير في اللغة المنطوقة.

ويتضمن تحليل الخطاب عند أصحاب علم اللغة النصي، دراسة بنية النص، وذلك – عادة – لفحص التنوع في أنماطه، أو اختبار السمات اللغوية المحددة لبنيته.

وإذا كانت علوم النحو واللغة والبلاغة والتفسير وعلوم القرآن، قد نهضت مع النص القرآني وبه – على اختلاف فيما بينها في الاختصاص والغاية – فإن تحليل خطاب المفارقة في النص القرآني، لن يكون – بحال – تحليلاً لغويًا متكاملاً، إلا إذا أفاد حقًا من معطيات هذه العلوم جميعًا. وذلك أمر مهم! اجتهدت هنا في تحقيقه والعض عليه بالنواجذ قدر الطاقة!

ولا ريب أن هذا النهج مبرر بالرغبة في الكشف عن الأبنية المتفاعلة داخل النص، وبيان أهمية المضامين أو المحتويات الخطابية، وكشف أثرها في تحديد الاختيار التركيبي، أو سمات بنية الخطاب، من الناحية المعرفية والأسلوبية.

وغني عن البيان، أن الانقطاع عن القديم – عند اقتضاء الاتصال به – في أي بحث جديد، يصبح مضرة للبحث ذاته، وإضعافًا من قيمته وجدواه، في تأسيس بناء معرفي متين في مجال اختصاصه. من هنا، فإن التأصيل النظري، وسعة الأفق التطبيقي، يوجبان الاتصال بالقديم، والبناء عليه بأساليب جديدة. وهو اتصال لا يتوقف عند ما يسعفنا به مجال التطبيق، وإنما يتجاوزه إلى تحريك المستندات النظرية والفكرية الأصيلة، التي تعمق تعاملنا مع النص، وتوسع معرفتنا به. ويظل صنيعنا في كل ذلك إفادةً وبناءً، لا نقلاً واحتذاءً. ولله درُّ الجاحظ حين قال: "إذا سمعت الرجل يقول: ما ترك الأولُ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للآخِر شيئًا، فاعلم أنه ما يريد أن يفلح!" وأنا أصدرُ في ذلك عن علم بأن لكل حالة آلة، وأن ليس للباحث أن يجري فيما لا يدري!

ومهما يكن من أمر، فقد جعلت هذا البحث في بابين اثنين:

أولهما: مدخل نظري، ضم فصولاً ثلاثة، عرضت في أولها لمفهوم المفارقة. وكشفت في ثانيها عن طبيعة العلاقة بين المفارقة ومعنى المعنى.وفي الفصل الثالث، كانت النظرة إلى المفارقة في ضوء السياق.

أما الباب الثاني، فهو دراسة تطبيقية للمفارقة القرآنية. وقد ضم فصولاً سبعة هي ذاتها الأنواع المختلفة للمفارقة، التي أمكنني استخراجها، وتحليل نماذجها في النص القرآني. وهذه الأنواع السبعة هي: مفارقة النغمة، والمفارقة اللفظية، ومفارقة الحكاية أو الإيهام، والمفارقة البنائية، والإلماع، ومفارقة المفهوم أو التصور، ومفارقة السلوك الحركي.

ولم يدَّخر صاحب هذا البحث جهدًا، في استقصاء النماذج وتحليلها، وتفصيل القول فيما تقدمه من معطيات فونولوجية ونحوية وخطابية. وذلك فضلاً عما تعوَّل عليه من سياقات متنوعة. ونعني بالمعطيات الفونولوجية: الفونيمات، والمقاطع، والمجموعة النغمية. ونعني بالمعطيات النحوية: المورفيم، والكلمة، والمجموعة اللفظية، والعبارة، والجملة الكبرى. ونعني بالمعطيات الخطابية: الحدث اللفظي، وحدث الوظيفة أو المغزى، والعلاقات البنائية والدلالية بين الوحدات الصغرى داخل البنية اللغوية لما فوق الجملة. ونعني بالسياقات هنا: السياقات اللغوية والسياقات غير اللغوية.

ولا ريب أن بحثًا في المفارقة اللغوية في القرآن، يُعَدُّ عملاً تأسيسيًّا في مجال اهتمامه؛ لأنه بحث في أرفع ما عرفه اللسان العربي من تعبير، وأعلى ما أدركه من طاقات الإبلاغ والإفصاح. من أجل ذلك، تظل الجهود المخلصة في درس لغة التنزيل الحكيم درسًا أصيلاً – بالرغم من جهود القدماء فائقة القدر – أنبل ما يزدهي به البحث اللغوي العربي المعاصر. وهو الأحق بأن يَشدَّ إليه النحارير من علماء اللغة والأسلوب المعاصرين رحالهم؛ حتى يظل دائمًا على حظه الأكفى وقدحه المعلَّى!. ولا يزعم هذا البحث، أنه قد بلغ من

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

الحال والمنزلة غايةً ليس وراءها مُطَّلَعٌ لناظر، ولا زيادةٌ لمستزيد، ولا متجاوز لمجتهد، ولكن حسبه أن يكون قد قدم إلى مكتبة الدراسات للغوية للقرآن جديدًا، وأن يجد فيه القرّاء والدارسون من الفائدة قدر ما بُذِل فيه من جهد، وأن يكون بتجرده المنقطع عمّا سواه في تحليل لغة المفارقة: بنيةً ودلالةً، قد كشف عن بعض أسرار الإعجاز اللغوي للقرآن. وبعد، فأحمد الله تعالى، وأسأله التوفيق للصواب.

المؤلف

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

الباب الأول

مدخل إلى نظرية المفارقة

الفصل الأول: مفهوم المفارقة

الفصل الثاني: المفارقة ومعنى المعنى

الفصل الثالث: المفارقة والسياق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الأول

مفهوم المفارقة

١/١/١ المفارقة irony صيغة من التعبير، تفترض من المخاطب ازدواجية الاستماع double audience بمعنى أن المخاطَب يدرك في التعبير المنطوق معنىً عرفيًا يكمن فيه من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإنه يدرك أن هذا المنطوق utterance – في هذا السياق بخاصة – لا يصلح معه أن يؤخذ على قيمته السطحية(١). يعني ذلك أن هذا المنطوق، يرمي إلى معنى آخر، يحدِّده الموقف التبليغي، وهو معنى مناقض عادةً لهذا المعنى العرفي الحرفي.

بناءً على ذلك، تبدو المفارقة نوعًا من التضاد، بين المعنى المباشر للمنطوق والمعنى غير المباشر. ويتخصص هذا المفهوم قليلاً في المفارقة الدرامية dramatic irony، حيث تنطق الشخصية المسرحية بشئ له – عندها وعند الشخصية الأخرى التي تخاطبها – معنىً ما، ولكن هذا الشئ الذي تنطق به، له – عند النظّارة – معنىً مختلف تمامًا(٢).

إن هذا التضاد الذي نتحدث عنه، يلحظه القارئ أو المخاطب من خلال السياق الراهن. وقد كان ريتشاردز Richards يعرِّف المفارقة بأنها توازن الأضداد equilibrium of oppositions(٣).

---

(1) Fowler, H., W., A Dictionary of Modern English Usage, Oxford (1962) o, 295

(2) Abrams et al., The Norton Anthology of English Literature, Volume 1, 5th Editioon, New York – London (1976) p. 2595

(3) Abrams, M., H., A Glossary of literary Terms, Holt, Rinehart and Winston, 4th Edition (1981) p. 92

وكان زايدلر Seidler يجعل المفارقة الصيغة الأعلى للتعبير عن الأوضاع التي تنشأ من الحصافة العقلية geistige Ueberlegenheit المضادة للعالم. وهذه الحصافة هي غالبًا الحالة الوحيدة المضادة لاقتحام متوعد. انظر:

Seidler, Herbert, Allgemeine Stilistik, 2., neu – bearbeitete Auflage, Goettingen Vandenhoeck und Rurrecht (1963) S. 344

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

إن المفارقة – كما يقول فلايشر Fleischer وميشيل Michel – نوعٌ من الدلالة المحوَّلة في مقابل الدلالة الأولية. إنها تصويرٌ آخر للمعنى، يومئ إلى المعنى العكسي Gegenbedeutung. ومن أجل ذلك يترجم – أو يحوّل – إلى ضده؛ فتقويم السلبيات مثلاً، يُلمع – في ظاهره – إلى الضد الإيجابي positives Gegenteil[١].

والمفارقة تعبير انتقادي يعرض ملمحًا سلبيًّا فيه مغالاة أو مبالغة، فيهوِّن من شأنه.

وربما جعلت المفارقة – في الوقت نفسه – أداة تلطيفية، كأن يقال مثلاً: هذه ليست فكرة غبية! ففي هذه العبارة، إشارة إلى قدر من الذكاء. فإذا قيل: هذه ليست – بحال – فكرة ذكية، كان وضع الذكاء في موضع الغباء، علامة التخفيف أو التهوين من أمر الغباء، على نحو تعبيري تلميحي تلطيفي تهكميironisch euphemistisch[٢].

إن الأساس الذي تبنى عليه المفارقة اللغوية، هو مفارقة التعبير المنطوق للمعنى المقصود، الذي يحتمه السياق اللغوي، أو الموقف التبليغي الراهن، ويحدده. من أجل ذلك، فإن المفارقة اللغوية، تكشف عن أمرين اثنين:

أولهما: عنصر الإخفاء.

والآخر: حقيقة كون المتخفى في التعبير المنطوق، هو المقصود إظهاره[٣].

---

(1) Fleischer, W., Michel, G., Stilistik der Deutschen Gegenwartssprache, VEB Bibliographisches Institut, Leipzig (1977) S. 155

(2) المرجع السابق ص١٥٦

(3) Leech, N., Geoffrey, A Linguistic Guide to English Poetry, 6th impression, London (1979) p. 171

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

٢/١/١ وتتعدد صور المفارقة ووظائفها: فقد تكون سلاحًا للهجوم الساخر، وقد تكون أشبه بستار رقيق، يشف عما وراءه من هزيمة الإنسان. وربما أدارت المفارقة ظهرها لعالمنا الواقعي وقلبته رأسًا على عقب. وربما كانت المفارقة تهدف إلى إخراج أحشاء قلب الإنسان الضحية لنرى ما فيه من متناقضات وتضاربات تثير الضحك(١).

من أجل ذلك، كانت المفارقة أداة أسلوبية فعالة للتهكم والاستهزاء. ويخرج عن ذلك، الاستهزاء الذي تخلو صياغته اللغوية من مفارقة اللفظ للمعنى، بل يُرَدّ إلى أدوات لغوية أسلوبية أخرى، وهو ما نجده مثلاً في قوله تعالى: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾ [الفرقان:٤١]، وقد جاء على لسان المشركين استهزاءً بالرسول الكريم ﷺ. العبارة هنا أدت هذا المعنى بأدوات أهمها الاستفهام الاستنكاري والإشارة.

٣/١/١ ولا ريب أن التهكم والهزء والسخرية(٢)، من العوامل المهمة التي تؤدي إلى قلب المعنى، وتغيير الدلالة إلى ضدها في كثير من

---

(1) د/ نبيلة إبراهيم: المفارقة، مجلة فصول، المجلد السابع، العددان الثالث والرابع (إبريل – سبتمبر ١٩٨٧م) ص١٣١-١٤١ ص١٣٢

ويقول فريدريك شليغل: "كل شئ في المفارقة irony يجب أن يكون نكتة، وكل شئ يجب أن يكون جديًا، أي بسيطًا صريحًا ومفرط التصنع في آن. إن المفارقة تظهر حين تتحد الرهافة إزاء فن الحياة مع الروح العلمية، حين تتفق فيما بينها فلسفة الطبيعة كاملة مع فلسفة الفن كاملة. إنها تتضمن وتبعث فينا شعورًا بتناقض لا حل له بين ما هو حتمي وما هو مشروط، شعورًا بتعذر الكمال في القول وبضرورته. إنها أكثر الحريات حرية، إذ بفضلها يستطيع الإنسان أن يسمو على نفسه، وعلى جميع ما يختص به من معايير، لأن المفارقة ضرورة حتمًا" (انظر: الوعي والفن لغيورغي غاتشف، ترجمة دكتور نوفل نيوف مراجعة دكتور سعد مصلوح، سلسلة عالم المعرفة – الكويت (١٤١٠هـ – ١٩٩٠م) ص٢٣٨

(2) يفرق أبو هلال العسكري (ت بعد سنة ٤٠٠هـ) بين الاستهزاء والسخرية، بأن الإنسان يُستهزأ به من غير أن يسبق منه فعل يستهزأ به من أجله، والسخر يدل على فعل يسبق من المسخور منه. وذلك أنك تقول: استهزأت به، فتعدّي الفعل منك بالباء، والباء للإلصاق كأنك ألصقت به استهزاءً من غير أن يدل على شئ وقع الاستهزاء من أجله. وتقول: سخرت منه، فيقتضي ذلك من وقع السخر من أجله. ويجوز أن يقال: أصل سخرت منه التسخير، وهو تذليل الشئ وجعلك إياه منقادًا، فكأنك إذا سخرت منه، جعلته كالمنقاد لك.

الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٤ (١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م) ص٢٤٩

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأحيان. وهذا مما لاحظه د/ رمضان عبد التواب[1]. وضرب على ذلك أمثلة منها: كلمة "التعزير"؛ فأصلها في العربية التعظيم، ومنه قوله تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ ورَسُولِهِ وتُعَزِّرُوهُ وتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح:٩]، غير أنها تستعمل في معنى التأديب والتعنيف واللوم تهكمًا واستهزاءً بالمذنب![2].

وتذكر مصادر الأضداد في تراثنا اللغوي ألفاظًا أخرى، أطلقت على أضدادها إطلاقًا فيه تهكم. من ذلك قول ابن الأنباري (ت٣٢٨هـ): "ومما يشبه الأضدادَ أيضًا، قولهم للعاقل: ياعاقل، وللجاهل إذا استهزءوا به: ياعاقل"[3].

ويروي القدماء ألفاظًا أخرى، نلحظ فيها آثار التهكم، نحو "التقريظ"، وهي تعني مدح الحي في مقابل "التأبين" التي تعني مدح الميت، لكنها وردت عندهم بمعنى الذم أيضًا[4]. وذلك دون ريب، من آثار التهكم والسخرية بالمذموم.

٤/١/١ وإذا عدنا إلى طبيعة المفارقة، رأينا أن عناصر التعبير اللغوي قد تدل على معنى الاستحسان، وإن لم يكن هذا المعنى إلا المعنى الظاهر أو المباشر overt or direct meaning الذي يتخذه هذا التعبير قناعًا يُخفي وراءه معنى آخر مستورًا أو غير مباشر covert or oblique meaning، وهو معنى الاستحسان. من هنا، يكمن التهكم أو الاستهزاء sarcasm في قول نقيض الشئ المقصود قوله فعلاً، وذلك أن يكون المقال لطيفًا، بينما الذي أقصده فعلاً في هذا المقام – وهو ما ينبغي

---

(1) د/ رمضان عبد التواب: فصول في فقه العربية، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، ط٢ (١٤٠٤هـ – ١٩٨٣م) ص٣٤٩

(2) ابن الأنباري (أبو بكر): الأضداد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الكويت (١٩٦٠) ص١٤٧، وقارن: أبو الطيب اللغوي: الأضداد في كلام العرب، تحقيق د/ عزة حسن، دمشق (١٩٦٣م) ٥٠٦/٢

(3) الأضداد لابن الأنباري، مرجع سابق ص٢٥٧، ٢٥٨

(4) المرجع السابق ص٣٩٢، وقارن: الأضداد لقطرب: نشره هانز كوفلر في مجلة إسلاميكا (١٩٣٢م) ص٣٦٧

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

للمخاطب أن يفهمه أيضًا – أمر آخر كريه أو مستهجن. والمخاطب يرفض المعنى الظاهر للمقال؛ لأنه يدرك تناقضه، أو عدم تكافؤه مع السياق. وعندما يومئ السياق إلى استحالة التفسير الظاهري للكلام، فإنه يومئ – في الوقت ذاته – إلى ضرورة تفسيره تفسيرًا باطنيًا؛ وذلك أنك حين تنعت وضيعًا بنعوت الشرف، فهذا مما يؤخذ مأخذ الجد! إنه نوع مبالغةexaggeration وهي مبالغة ترمي إلى الهزء والسخرية ridicule. هنا تجد تضادًا يجعل المفارقة أداةً له. وينشأ هذا التضاد بين لفظ "الشرف" ومعاني "الضعة" أو "الخسة" التي فرضها الموقف(١).

يتبين لنا مما تقدم، أن المفارقة اللغوية، تتجه إلى مخالفة ما يجري تأكيده لما تكون عليه الحال الحاضرة فعلاً، وذلك ما يلحظه آبرامز Abrams(٢). ويتجلى من ذلك، كيف يكون الرجوع إلى المفارقة – عند أحد الكتاب – مدحًا ضمنيًا لذكاء القارئ، الذي يربط نفسه بالكاتب، حتى يدرك – على الأقل – ما يريد التعبير عنه أو القصد إليه. وهذا مما يفسر لنا سبب سوء تفسير بعض المفارقات. إن المفارقات – عند بعض الكتاب – تُعَدُّ اختبارًا لمهارة القراء في قراءة ما بين السطور(٣). ولعل مردَّ ذلك إلى طبيعة المفارقة في ذاتها: فالمفارقة – كما يقول كلينث بروكس Cleanth Brooks – هي "لغة الفكر، والصلابة، والبراعة، وسرعة الخاطر"(٤).

١/١/٥ ولعل أهم محددات المفارقة، ما تذكره د/ نبيلة إبراهيم، من عناصر نوجزها فيما يلي:

---

(1) Leech, A Linguistic Guide, op. cit., p. 172

(2) Abrams, A Glossary, op. cit., p. 89

(3) المرجع السابق ص٩٠

(4) كلنث بروكس: لغة المفارقة، ترجمة محمد منصور أبا حسين، مجلة الدارة، تصدر عن دارة الملك عبد العزيز بالرياض، العدد الثاني، السنة السادسة عشرة (المحرم – صفر – ربيع الأول) (١٤١١هـ) ص١٧١

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أولاً: وجود مستويين للمعنى في التعبير الواحد: المستوى السطحي للكلام على نحو ما يعبر به، والمستوى الكامن الذي لم يعبَّر عنه، والذي يلح القارئ على اكتشافه.

ثانيًا: لا يتم الوصول إلى إدراك المفارقة إلا من خلال إدراك التعارض أو التناقض بين الحقائق على المستوى الشكلي للنص.

ثالثًا: لابد من وجود ضحية في المفارقة[١].

ويلاحظ أن الكلام المنطوق، يعول على أدوات للمفارقة، تنسجم مع طبيعته وخصائص تركيبه؛ففي الكلام المنطوق "يمكن أن تنتقل المفارقة، من خلال أنماط محددة من النبر stress والتنغيم intonation، وتنتقل أيضًا بواسطة وسائل فوق لغوية paralinguistic، مثل الإيقاع rhythm وطريقة الأداء Tempo، ونغمة الصوت tone of voice وعلو الصوت loudness، ونحو ذلك[٢]:

٦/١/١ هذا، ولم أجد فيما وقع بين يدي من مصادر عربية قديمة: لغويةً وبلاغيةً، من ذكر مصطلح "المفارقة" وما نجده فيها مقابلاً للمفارقة– استنتاجًا من النماذج المتمثَّل بها في المضمون العام والمغزى – هو اصطلاح "التهكم". وقد ذكره البيانيون وعنوا به إلى حد ما. ومن هنا، يجوز لنا القول بأن ظاهرة المفارقة، التي يهتم بها اليوم علماء الدلالة والأسلوب، قد عرفت طريقها – على نحو ما – إلى البحث البلاغي العربي القديم، وفي بعض المباحث اللغوية اليسيرة، تحت مصطلح "التهكم".

ويعرِّف الزركشي (ت ٧٩٤هـ) التهكم بأنه: "إخراج الكلام على ضد مقتضى الحال، كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩][٣]. فتراه يقترب اقترابًا شديدًا من حد المفارقة في بحوث المعاصرين وإن

---

(1) د/ نبيلة إبراهيم: المفارقة، مرجع سابق ص١٣٣

(2) Enkvist, Nils Erik, Linguistic Stylistics, Mouton, the Hague – Paris (1973) p. 89

(3) الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله): البرهان في علوم القرآن، دار المعرفة للطباعة والنشر (١٩٧٢م) ٥٨/٤

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

أغفل عنصر الضدية الملازم، في تعريفه التهكم في موضع آخر، بقوله: "الاستهزاء بالمخاطب، مأخوذ من (تهكّم البئر) إذا تهدَّمت"[1]. وكان الزركشي قد أفرد في برهانه بابًا لوجوه الخطاب والمخاطبات في القرآن، وجعل منها خطاب التهكم[2].

ولصاحب "الطراز" يحي بن حمزة (ت ٧٤٥هـ)، إشارات مفيدة إلى هذه الظاهرة. وهي إشارات ترقى إلى محاولات علمية تنظيرية أصيلة. عرَّف العلوي التهكم بقوله: "وهو تفعّل، من قولهم (تهكمت البئر)، إذا تساقطت جوانبها. وهو عبارة عن شدة الغضب؛ لأن الإنسان إذا اشتد غضبه، فإنه يخرج عن حد الاستقامة وتتغير أحواله. وهو في مصطلح علماء البيان عبارة عن إخراج الكلام على ضد مقتضى الحال استهزاءً بالمخاطب. ودخوله كثير في كلام الله تعالى، وكلام رسوله ﷺ، وعلى ألسنة الفصحاء، وله موقع عظيم في إفادة البلاغة والفصاحة[3]. فتراه فطنًا إلى أصل التهكم اللغوي، وإلى عنصر الضدية في حد التهكم، وإلى الأثر البلاغي أو الفعل الإنجازي الذي يفيده هذا اللون من التعبير اللغوي.

وقد جعل يحيى بن حمزة للتهكم خمسة أوجه:

أولها: أن يكون واردًا على جهة الوعيد بلفظ الوعد تهكمًا، وهذا كقوله تعالى: ﴿**فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الانشقاق:٢٤].

وثانيها: أن تورد صفات المدح، والمقصود بها الذم، كقوله تعالى: ﴿**ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ**﴾ [الدخان:٤٩].

وثالثها: لم يُسَمّه يحيى بن حمزة. ولنا – من أمثلته ذاتها – أن نسميه بما جاء على القلة، والغرض التكثير والتحقيق للعلم بما ذكره، كقوله تعالى: ﴿**قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ**﴾ [الأحزاب:١٨].

---

(1) المرجع السابق ٢/٢٣١

(2) المرجع نفسه ٢/٢٣١ وما بعدها.

(3) العلوي (يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني)، كتاب الطراز، مكتبة المعارف، الرياض، بدون تاريخ نشر ٣/١٦١-١٦٢

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ورابعها: لم يُسَمّه كذلك. ولنا أن نسميه بما جاء على جهة التقليل، وأُخرج مخرج الشك، والغرض به التكثير والتحقيق أيضًا، كقوله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر:٢].

وخامسها: لم يسمِّه هو الآخر، ويمكن تسميته بالحكاية وذلك كقوله تعالى حكايةً عن قوم شعيب: ﴿إِنَّكَ لأَنتَ الحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧][1].

وقد ارتأى العلوي، أن التقسيم السابق إلى هذه الأوجه المختلفة، "ليس له ضابط يضبطه، وإنما الجامع لشتات معانيه، هو ما ذكرناه من إخراج الكلام على خلاف مقتضى الحال، فلابد من مراعاة ما ذكرناه، وإن اختلفت صوره"[2].

٧/١/١ وإذا كنا آثرنا في هذا البحث اصطلاح "المفارقة"؛ فذلك أنه أخص من "التهكم"، في اشتراط عنصر الضدية، الذي يخلو منه التهكم في حالات متنوعة، ولأن المفارقة أشد ارتباطًا بعلم الدلالة – لاسيما علم الدلالة المعجمي Lexical semantics، وعلم الأسلوب لاسيما علم الأسلوب اللغوي Linguistic Stylistics. من ناحية أخرى فإن تحليل المكونات اللغوية لبنية المفارقة، وربطها بالعوامل الخطابية الواردة في النص، إنما هي إجراءات لغوية في أسسها وأولياتها.

❖❖❖❖❖

(1) المرجع السابق ٣/١٦٢، ١٦٤

(2) المرجع نفسه ٣/١٦٤

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner